قيم الصداقة
في شعر محمد بن حازم الباهلي

م.د. أكرم علي عنبر

الملخص

تناول البحث موضوعآ مهماً في شعر محمد بن حازم هو موضوع الصداقة, تناوله الشاعر وكتب فيه كغرض شعري متميز. وقد خصص قصائد ومقطوعات لهذا الفن, مركزآ فيه على الجوانب التربوية والاخلاقية, وكذلك بحث الشاعر أوجه الصداقة الموجودة في مجتمعه وكأنه أصبح مرآة عاكسة لما موجود في ذلك المجتمع, لذلك كان من المهم قراءة هذا الشاعر والكتابة فيه، وقد انتهجنا في البحث المنهج التحليلي النقدي الذي يستنطق النصوص إذ يكون النص فيها هو الحاكم وهو الموجه للمعنى بغض النظر عن الخلفيات التاريخية والاجتماعية للنص. وقد كان همنا أن تقرأ النص قراءة متأنية وأن نستخرج منه أفكاره والاليات التي اعتمدها الشاعر في بناء نصوصه فوجدناه متمكنآ من أدواته الفنية واللغوية ومتميزآ بأختياراته للمفردات والصور حريصآ على انسجام الجانب الصوتي مع الدلالة. وفي الأخير ختمنا البحث بخاتمته وكذلك وضعنا قائمة بأهم المصادر التي اعتمدها.

المقدمة

إن لظاهرة الصداقة صدىً قوياً في الشعر العربي القديم كونها تمثل مفردة من مفردات الحياة اليومية عالجها الشعر بمظاهرها المختلفة لخصوصيتها الإنسانية أولاً ولأنه كان سجلاً صادقاً للقيم الأخلاقية المختلفة في المجتمع العربي ثانياً.

لقد كانت الصداقةُ ولا زالت ضرورة اجتماعية ملحة للفرد لأن الإنسان بطبيعته كائن اجتماعي لا يعيش إلا ضمن مجموعات ومن هنا نشأت حاجته الى تكوين علاقات مع أخيه الإنسان ليأنس به من خلالها وليكون عوناً له على

(ISSN : 2536 - 9555)

مواجهة تحديات الحياة ومصاعبها. فضلاً عن "أن ماهية الإنسان وميله الفطري للإجتماع جزء من حكمة الخلق الالهية"[1].

ومن هنا فقد تناول شاعرنا محمد بن حازم الباهلي (ت217هـ) موضوع الصداقة باعتباره موضوعاً اجتماعياً مهماً كان له أثره في المجتمع العباسي فضلاً عن كونه غرضاً شعرياً تطور على يد شعراء العصر وأولوه الكثير من الرعاية والاهتمام كبشار بن برد وأبي نؤاس وأبي العتاهية وغيرهم ممن كان له مساهمة واضحة في تنمية المعالجات الشعرية لهذا الغرض. وقد أنتج لنا في كل ذلك معان شعرية طريفة مستفيداً من تجربته الإنسانية وخبرته العملية بعد أن صبها في قالب شعري طريف. وبناءاً على ذلك فقد بحثنا في أشعار الباهلي عن صفات الصديق وأنماط سلوكه الحسنة والسيئة وكيفية اكتسابه وكذلك عن كيفية بناء الصداقة وإصلاحها. وقد آثرنا أن نبدأ البحث بتمهيد تناولنا فيه بايجاز سيرة الشاعر, وقدمنا تعريفاً موجزاً للصداقة. ومن ثم عالجنا الموضوع بمنهج تحليلي من خلال تتبع الجوانب المختلفة من الصداقةِ والأفكار المرتبطة بها بالاستناد الى النصوص الشعرية ومن خلال استقرائها معتمدين على طبعة الديوان بتحقيق شاكر العاشور, الطبعة الثانية 2011 بمدينة دمشق, والحقناه بخاتمة تضمنت أبرز النتائج التي توصل اليها البحث مع قائمة بالمصادر والمراجع المعتمدة.

التمهيد

1: سيرة الشاعر

هو الشاعر العباسي محمد بن حازم بن عمرو الباهلي بالولاء وكنيته أبو جعفر[2], لم تحفظ لنا المصادر المتقدمة إلا اليسير عن سيرته, ولد ونشأ في

[1] قلب الاسلام: حسين نصر: تعريب داخل الحمداني, ط1, بيروت, 2009: ص174.

[2] ينظر: طبقات الشعراء: ابن المعتز (307–309), الورقة: ابن الجراح (117–119), الاغاني: ابو الفرج الاصفهاني (60/14–72), معجم الشعراء: المرزباني (447/1).

البصرة, وبعد ذلك انتقل إلى بغداد فسكنها. كانت له رحلتان حسب ما يذكر أبو الفرج الأصفهاني الى مدينة الأحواز قاصداً فيها رجلين نابهين كانا مقصداً للشعراء وأهل الأدب ويبدو أن الشاعر في زيارته الثانية تزوج بإحدى فتيات مدينة تستر[3].

مدح المأمون العباسي ووزيره الحسن بن سهل والقائد المشهور عبد الله بن طاهر, روي عن قناعته ورضاه باليسير أنه ردّ عشرة آلاف درهم وثياباً وفرساً عتيقاً الى محمد بن حميد الذي قدمها إليه ليكفّ عن هجائه, فكتب إليه في ظهر رقعته:

لا أقبل المعروف من رجل ألبسته عاراً على الدهر[4]

وكتب تحت هذه الأبيات: ولكنني والله لا عدت بعدها الى ذكرك بسوء[5].

رجح محقق ديوانه الاستاذ شاكر العاشور أن وفاته كانت سنة 217 او 218هـ على أفضل الترجيحات[6]. تناول من الأغراض الشعرية المديح, والهجاء, والزهد والقناعة وذم الحرص, وله في الشكوى من الزمان وسوء الحال, واخيراً كان له شعر مشهور في ذم الشيب وبكاء الشباب. ومن أبرز خصائص شعره عدم الإطالة, وللعلماء اراء حسنة في شعره منها: قال عنه الخطيب البغدادي "كان حسن الشعر, مطبوع القول"[7] وذكر المرزباني في معجم الشعراء"[8] يقول المقطعات فيحسن" وقال عنه ابن المعتز "هو أجود الشعراء لفظاً وألطفهم معنىً"[9].

---

[3] ينظر: الاغاني: 71/14.

[4] الديوان: 51.

[5] ينظر: طبقات الشعراء: 309.

[6] ينظر: مقدمة الديوان: 12.

[7] تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي: 295/2.

[8] معجم الشعراء: المرزباني: 447/1.

[9] طبقات الشعراء: ابن المعتز: 308.

(ISSN : 2536 - 9555)

2: تعريف الصداقة

ذكر علماء الاحتماع أن جوهر الصداقة "يتعلق بكونها قائمة على الحميمية, والولاء, والارتباط الودي, على نحو متبادل بين شخصين أو أكثر, بحيث يفهم من ذلك أن تلك العلاقة ليست ناجمة أساساً عن الانتماء إلى مجموعة تتسم عادة بالتضامن الفطري, من مثل العائلة, أو القبيلة, أو أيّ رابط اخر من هذا القبيل"[10] كما وصفها الأنثروبولوجيون أو علماء الأناسة بأنها "علاقة تتحقق وتبنى وليست انتساباً فطرياً يعتمد على الوضعية الاجتماعية, كما أنها مستقلة من حيث المبدأ عن الارتباط المسبق كصلة القربى"[11].

لقد كانت التغيرات الاجتماعية ذات اثر واضح في طبيعة الصداقة, لكنها احتفظت ببعدها الاجتماعي فاعلاً ومؤثراً في الشعر العربي, وساهمت في تعزيز الوحدة الإجتماعية وتقوية أواصر الارتباط الداخلي بين أفراد المجتمع لما تحققه من كونها أساس للألفة والثقة المتبادلة وقدرتها على استيعاب حاجة المرء الدائمة إلى البوح بمكنونات النفس الى الصديق.

وتقوم الصداقة على عدة قيم مهمة تصلح كل واحدة منها أن تكون أساساً صلباً لهذه العلاقة الإنسانية ومنها (المحبة المتبادلة, والبعد عن الأنانيّة, والصراحة, والنية الصادقة, والأمانة, والمشاركة في الأحزان والأفراح, وتقديم المشورة المناسبة) وغير ذلك كثير. الأمر الذي يؤكد أن العلاقة المعنية تعد علاقة مركزية في أي نظام اجتماعي بشري, وما وجود مفردات عديدة مرادفة لمفردة (الصداقة) كالأخوة, والمودة, والصحابة, وما يشتق من كل واحدة منها إلا مؤشراً واضحاً عن دورها الإجتماعي المهم. وسوف نستند في فهمنا للصداقة عند الشاعر

[10] الصداقة في العصور القديمة: كونستان, ص15.

[11] الصداقة في العصور القديمة: ص15.

محمد بن حازم الباهلي إلى القصائد نفسها لأنها جاءت واضحة في تمثيلها للحياة الإجتماعية وكانت مرآة عاكسة لأوضاع ذلك الزمان.

الصداقة في شعر محمد بن حازم الباهلي

يؤكد الشاعر ابتداءاً أهمية اختيار الصديق كونه إنعكاساً للنوازع النفسية والعقلية التي تنطوي عليها النفس ويشير من خلال ذلك الى ضرورة اختيار الصديق الصدوق ويدعو الى الدقة في اختياره والانتباه لما لهذه الوشيجة النسانية من تأثير كبير على حياة الفرد والمجتمع يقول في ذلك[12] :

إن كنـــت متخـــذاً خلـــيلا فتنـــقّ واتخـــذ الخلـــيلا
مـــن لـــم يكـــن لـــك منصـــفاً فـــي الـــود فـــابغ لـــه بـــديلا
كـــم مـــن عزيـــز قـــد رأيـــ ـــتُ الحـــرص صـــيره ذلـــيلا

لقد بنى الشاعر نصه على خاصية الاختيار فجعلها محوراً اساسياً موجهاً خطابه بصفة الناصح الحكيم وبصيغة أمرية صريحة متوسلاً بالأفعال (تنقّ, اتخذ, ابغ) لتكون رسالته أبلغ لهدفها وأوضح في معناها. فالإنسان أمام موضوع اختيار الصديق يجب عليه أن يقف متأملاً ومتفحصاً من يمكن أن يطمئن له فيحظى بشروط الصداقة ويوفيها حقها, وقد حاور الشاعر متلقيه بنص ذي وجهين: الأول يمثله صوت اتخاذ الصديق كضرورة لا بدّ منها مع شدة الاحتراز والتثبت في اختياره, أما الثاني فهو صوت امتحانه لمعرفة مستوى صدقه في هذه العلاقة فإذا ما تبين كذبه فلا حلّ سوى البحث عن البديل الذي يلبي متطلبات هذه العلاقة.

وقد كان للتصريع أثر بيّن في توجيه الاهتمام الى مفردتي (اتخاذ الخليل) كونها تكررت في شطري البيت الأول فحققت نبرةً قويةً عملت على لفت الأنظار

[12] الديوان: 80.

(ISSN : 2536 - 9555)

اليهما. وهذا ما يؤكد أن "العملية الإبداعية لكي تحقق فاعليتها في التأثير تعتمد على قدرات منتج الخطاب في استخدام عناصره"[13].

ويبدو في أكثر من مرة محذراً من أهل زمانه مما يستلزم الدقة في اختيار الصديق الذي يعتمد عليه والذي يؤمن حقا بقيم الإخاء والمروءة يقول[14]:

إخـــوانُ هـــذا الزمـــان كلّهـــم إخـــوانُ غـــدر عليـــه قـــد جبلـــوا
أخـــوهمُ المســـتحقُّ وصـــلهمُ مـــن شـــربوا عنـــده ومـــن أكلـــوا
طـــووا ثيـــابَ الوصـــال بيـــنهمُ وصـــار ثـــوبُ الريـــاء يُبتـــذلُ
ولـــيس فيمـــا رايـــتُ بيـــنهمُ وبـــينَ مـــن كـــان مُعـــدماً عمـــلُ
فـاحفظ مـن النـاس إن ظفـرتَ بـه مـن لـم يكـن فـي إخائـه دغـلُ

ذهب الشاعر في هذا النص مذهب التشدد والغلو في نظرته الى الأصدقاء, فقد أتى بلفظ التوكيد (كلهم) للدلالة على شيوع ما سيذكره من صفات سلبية تماماً يتصف بها أفراد زمنه, ومن ثمّ أضاف صفة (الغدر) الى كلمة (اخوان) ليزيد من تعالق الصفة بهم وليعطيها معنى من الديمومة والثبات. ولم يكتفي بذلك بل ألحقه بقوله: إنهم جبلوا على ذلك فصار كأن الغدر مزروع في نفوسهم زرعاً لا يمكن معه أن يكونوا غير متصفين به. وقد حاول أن يتدارك رأيه في البيت الأخير فيترك مجالاً للتفاؤل في نفسه ويفتح باباً لمتلقيه بأن هناك من يستحق الإخاء والصداقة ويحمل في نفسه معاني الود والوفاء، لكنه يعود الى حذره من خلال وضعه جملة (إن ظفرت به) في وسط هذا التفاؤل, وإن استخدامه لمفردة (ظفرت) يشي لنا بدلالات الندرة وعدم الوجود. ولا يغفل في كل ذلك عن استعماله لمجازات اللغة وانزياحاتها فقد أفاد من الاستعارة في شحن المعنى بدلالات جديدة, اذ جعل الوصال ثياباً يمكن أن تطوى وجعل الرياء ثياباً يمكن أن تنشر وتبتذل ليبين لنا

[13] الرمز في الخطاب الادبي: حسن كريم عاتي, بغداد, الروسم للصحافة والنشر, ط1, 2015, ص13.
[14] الديوان: 84.

أن الوصال الحقيقي لا وجود له بين الأصدقاء إلا ما كان على سبيل الرياء والمخادعة. وهو في استثماره لإمكانات الصورة الفنية يؤكد أنها "عنصراً من عناصر النص الأدبي يمتلك جماليةً عاليةً وطاقةً تعبيريةً تؤثر في المتلقي وترتقي بالطاقة الإنفعالية والتعبيرية للنص. لتحقيق ما يرغب منتج الخطاب في الوصول إليه من تأثير في الآخر"[15]. وهو يصنف الإخوان والأصدقاء ويجعل منهم ألواناً وأنواعاً, فهم ليسوا على حدّ سواء, فمنهم الذي لا يريك سوى الابتسامة أو السلام أو السؤال ثم يقف في علاقته بك عند هذا الحد. فالشاعر يفتقد الصداقة الحقيقية التي تقوم على البذل والمساعدة والمشاركة يقول[16]:

وإنّ من الإخوان إخوانَ كشرة وإخوانَ حيّاك الإلهُ ومرحبا
وإخوانَ كيف الحالُ والأهلُ كلُّهُ وذلك لا يسوى كُراعاً مُتَرَّبا
جوادٌ إذا استغنيتَ عنهُ بماله يقولُ إليَّ القرضُ والقرضَ فاطلبا
فإن أنت حاولتَ الذي خلف ظهره وجدت الثريا منه في البعد أقربا

إن الشاعر هنا لم يكن يسعى الى تقصي أنواع الصداقات وتعدادها بقدر ما أراد أن يعطي نماذج مما رآه في مجتمعه متوسلاً بتكرار مفردة (الإخوان) أربع مرات في بيتين موحياً لنا بالتناقض الحاد بين معنى (الاخوة) بكل تجلياته الفضائلية الرفيعة ومعنى الخداع والرياء والتظاهر بخلاف الحقيقة الذي يفهم من المفردات والجمل المضافة الى كلمة (اخوان) فالتكشير والترحيب والسؤال عن الحال لا تعدوا أن تكون قوالب جاهزة يتصف بها من لا يؤمن حقاً بالصداقة وقيمها. ثم يعود ليؤكد أهمية الاختبار كمعيار لقياس مستوى الصدق, فما بين الادعاء والحقيقة تطلُّ علينا سخرية الشاعر خلف ستار مشهد تمثيلي مختصر أبطاله صديق مدع بالجود والكرم والنجدة وصديق اخر يتقمص شخصية المحتاج

[15] الرمز في الخطاب الادبي, ص23.
[16] الديوان: 25.

(ISSN : 2536 - 9555)

السائل فيصدمنا بنهاية تعود بنا الى بداية النص ومفتتحه بأن الصديق الحقيقي لا وجود له. اذاً فالصداقة عنده لا تستعمل للدلالة على التبادل العاطفي فحسب وإنما تخضع لسلسلة معقدة من الالتزامات كما نراها في المفهوم اليوناني القديم اذ إن "كلمة philia التي تعني الصداقة والمحبة في اليونان الكلاسيكية ليست في الأصل رابطة شخصية تقوم على المودة والدفء العاطفي بل إنها علاقة موضوعية كلياً تتسم بالالتزام المتبادل"[17].

ويبدو أن نظرته للصديق لم تكن واحدة في كل الأوقات, فهو في موضع اخر يرض منه بظاهره ولا يشترط أن يكون باطنه مطابقا لذلك الظاهر, وفي ذلك تكمن المعاناة الحقيقية لشاعرنا, فهو في صراع مستمر مع نفسه والمجتمع، ويبدو أن "هنالك عدداً من الأفراد يتكيفون وينسجمون الى حد ما مع المحيط الذي يعيشون فيه, لكن العدد الأكبر منهم لا ينسجمون معه, وهم مستعدون لتغييره"[18] فيظهر هنا الشاعر متوازناً ناصحاً بالعفو عن سيئات الصديق لأن الإنسان لا يعدوا أن يكون خطّاءاً ومسيئاً في كثير من الأحيان يقول في ذلك[19]:

إرضَ من المرء في مودَّته ... بما يؤدّي اليك ظاهرُهُ
من يكشف الناسَ لا يرى احداً ... تصحُّ منهُ لهُ سرائرُهُ
توشكُ أن لا تتمَّ وصلَ أخ ... في كلّ زلاته تنافرُهُ
إن ساءني صاحبي احتملتُ وإن ... سَرَّ فإنّي أخوهُ شاكرُهُ
أصفحُ عن ذنبه وإن طَلَبَ الـ ... عُذرَ فإنّي عليه عاذرُهُ

إنّ حركية الخطاب في هذا النص شهدت عدة تحولات حيث اتجهت من الحديث مع المخاطب الحاضر (ارض) الى المخاطب الغائب (يكشف– يرى) ثم

[17] الصداقة في العصور القديمة: ديفيد كونستان, ترجمة علي للو.
[18] جدلية الحرية والعبودية: جلال الدين الفارسي, تعريب د.دلال عباس, ط1, بيروت, 2009: ص94.
[19] الديوان: 58–59.

عادت الى المخاطب الحاضر (توشك– تتم– تنافره) ثم انتقلت عبر ضمير المتحدث (ساءني– احتملت– اصفح) وهكذا نوّع الشاعرُ باستعمال اسلوب الالتفات مرجعيات الخطاب ليقلل من رتابة الفكرة ويضفي نوعاً من الحيوية على الموضوع, فالالتفات "أحد خصائص اللغة الجمالية. واللغة الجمالية تمارس على متلقيها في حالة سماع (المخاطب) لها تأثيرا نفسيا يولد فيه حالة الطرب التي تلازمها الهزة والحركة. ولمّا كان الالتفات عنصراً من عناصر هذه اللغة فإنه يقوم بوظيفتها"[20]. ويمكن لمن يمعن النظر في النص أن يلاحظ دقة استعمال الشاعر لمفرداته فإيراده للفعل (يكشف) جاء دقيقاً ومناسباً للمعنى المقصود فالكشف لايكون إلا لما تم ستره واخفاؤه وهي هنا المشاعر الحقيقية التي يكتنهها الانسان والتي لا تعرف إلا بعد أن تترجم على شكل أفعال وأقوال وإشارات, وقد استعمل في السياق نفسه مفردة (السرائر) للتعبير عن هذه المشاعر فضلاً عن استغلاله لقيمة التضاد الواقع بين (الكشف والسرائر) والذي يعكس صراعاً حاداً في ذلك المجتمع الذي عانى من تصدعات عميقة على مستوى العلاقات الثنائية والجمعية وهذا ما يؤكد أن الشعر العربي "نتاج صادق عن البيئة التي منحته المرونة والمطاوعة للتعبيرِ عن فلسفتِها وحركتها"[21].

وهو كذلك يدعو الى (الهجر الجميل) إذا لم يبق من الصداقة إلا المظاهر الخادعة (التكاشر) يقول[22]:

إذا ما تقضّى الودُّ إلا تكاشُراً فهجرٌ جميلٌ بالفريقينِ صالحُ
تلوَّنتَ أخلاقاً عليَّ كثيرةً ومازجَ عذباً من إخائِكَ مالحُ

[20] تحليل الخطاب البلاغي, دراسة في تشكل المفاهيم والوظائف: د. عماد عبد اللطيف, عمان, دار كنوز المعرفة, 2014, ص121.
[21] اثافي الطلل: د. رعد الزبيدي, دار بغداد, ط1, 2014, ص15.
[22] الديوان: 44–45.

(ISSN : 2536 - 9555)

يؤكد الشاعر في سياق تناوله لهذا الموضوع أن الصداقة بهذا المستوى من التعامل القائم على الأنانية لا يمكن لها أن تنجح لأنه يفهم الصداقة على أنها علاقة طوعية متبادلة قائمة على المحبة وبعيدة عن الأنانية, ويبدو متأثراً الى حد كبير بتغير الصديق من حال الى حال, ويتجسد ذلك التاثر بالمشاعر المضطربة التي يشي بها التضاد اللغوي الواقع بين (الإخاء العذب) و(الإخاء المالح) والذي ورد في سياق استثماره لخاصية الاستعارة كلعبة لغوية قادرة على نقل الصورة الذهنية للمعنى وتحويله الى رسالة مفهومة للمتلقي, فاللغة "ذات تقنيات تبحث عن شكل فني لها ينسجم مع قدرة الذاكرة على الحفظ, واستئناس السمع لهذا القول المكثف لغة وموسيقى, والمعبر بقوة عن مواقف الحياة ومحاكاتها"[23] ويعود ليبين لنا ان هذه النتيجة لا يمكن ان يقف امامها بل سوف يمضي للبديل ما أمكنه ذلك, يقول[24]:

فلي عنكَ مستغنىً وفي الأرضِ مذهبٌ فسيحٌ ورزقُ اللهِ غادٍ ورائحُ
عليك سلامٌ لا تواصلَ بعدَهُ فلا القلبُ محزونٌ ولا الدمعُ سافحُ

وفي مكان آخر يؤكد هذا المعنى لكن بلغة أشدّ قليلاً, إذ يدعو الى القطيعة والبعد لا الى (الهجر الجميل) كما رأينا سلفاً ويجعل من هذه القطيعة أقر لعينه من الصداقة لأنها في حكم المنتفية بعد أن لم يبق منها سوى المظاهر الخداعة وهذا يؤكد تمسكه بالبحث عن الأنموذج الذي يعي حقوق الصديق ويتمسك بمعاني هذه العلاقة الإنسانية الرائعة يقول في ذلك[25]:

أقرُّ لعيني من إخاءِ تكاشرٍ إذا ما انقضى الودُّ القطيعةُ والبعدُ
ولي من صديقٍ بالأذى متسرّعٍ إليّ وممّن لا يوافقني بُدُّ

[23] اثافي الطلل, ص17–18.
[24] الديوان: 45.
[25] الديوان: 46.

لقد كان يرى تراجعاً في جودة الصداقة في مجتمعه نتيجة للاغتراب والفهم المادي للعلاقات الشخصية ويسوق في سبيل إثبات وجهة نظره في رفض الصداقة القائمة على عدم الالتزام ثلاثةً من العلل في البيت الثاني (الإسراع في الأذى من قبل الصديق, وعدم التوافق فيما بينهما, وقدرته على ايجاد البديل المناسب) فضلاً عن ذلك فإن وجود "فوائد عملية للصداقة لا يجعلها تختزل بالضرورة الى مستوى مجموعة من عمليات التبادل المبنية على المصلحة والالتزام بدلاً من المودة, كما إن انطواء الصداقة على فوائد عديدة لا يقلل من شأنها ولا يحط من قيمتها بحيث تغدو مجرد منظومة من الصفقات المبنية على المنفعة والاضطرار بدلا من المودة المجردة من الأنانية"[26]. ويبدو عنده أن واحداً من أهم أسباب التهاجر بين الصديقين هو عدم التكافؤ والتشابه بينهما إذ يؤكد أنه لايصادق سوى من كان له نظيراً في العقل والأخلاق وما سوى ذلك فما له سوى الهجران يقول[27]:

وقائـــــلٍ كيـــــف تهاجرتمـــــا فقلـــتُ قـــولاً فيـــهِ إنصـــافُ
لـــم يـــكُ مـــن شـــكلي ففارقتـــهُ والنـــــــاسُ أشـــــكالٌ وألّافُ

الخطاب هنا أتى بصيغة استفهامية لتكون الاجابة واضحة وصريحة وفي صميم المعنى, وهذا يشير الى ضرورة قيام هذه العلاقة على المكاشفة والمصارحة لأن ذلك أساس الديمومة والبقاء لها. وقد كان الشاعر مصيباً حين استعمل (الفاء) العاطفة في الجملة (لم يكُ من شكلي ففارقته) لأنه دلَّ بذلك على رفضه للمواربة والمماطلة في اتخاذ القرار الحاسم بشأن بقاء الصداقة من عدمها, فالفاء شحنت المعنى بدلالة سرعة وقوع فعل المفارقة إذ لم يدع مجالاً للتردد أو التريث ثم أتى بالجملة الاسمية (الناس أشكالٌ وألّاف) كجملة احتجاجية مطروحة لسؤال ضمني قد يدور في ذهن المتلقي (لماذا تترك هذا الصديق بهذه السرعة؟) ولأنَّ الباثَّ في

[26] الصداقة. ص31.
[27] الديوان: 76.

(ISSN : 2536 - 9555)

الخطاب الحجاجي "ينتقي بدقة كل أجزائه ومفاصله ويصل بينها على نحو يوجه المتلقي الى غاية ما هي غاية الباثّ من خطابه"[28] وهذا يؤكد أن التشابه بين الصديقين هو الركيزة الأساس في هذه العلاقة وفي اختيار الصديق المناسب.

وبرغم أن هذه العلاقة الإنسانية قد تعتورها بعض حالات الخلاف والتقالي وقد تتطور الخلافات لتصل الى حد الهجران كما رأينا فلم يغب عن بال شاعرنا أن يعالجها بطريقة فيها من الحكمة والاتزان الشيء الكثير وهو يقول[29]:

تمادى به الهجرانُ واستحسنَ الغدرا وآلى يميناً لا يكلّمني الدهرا
فواللهِ ما استسننتُ بعد مودَّةٍ صديقاً ولا أرهقتُ ذا زلَّةٍ عُسرا
فإن عادَ في ودِّي رجعتُ لودّهِ وإلّا فإني لا أحمّلُهُ إصرا
وإن مالَ عنّي خائباً نحو عذرهِ تسلّيتُ عنهُ واستعرتُ لهُ صبرا
أُعدُّ لمن أبدى العداوةَ مثلها وأجزي عن الإحسانِ واحدةٌ عشرا

يلاحظ في البيت الأول تحشيد كبير للدلالات السلبية ابتداءاً من استعمال الفعل (تمادى) الذي يدل في هذا السياق على المبالغة في موضوع القطيعة, ومن ثم الاتيان بمفردة (الهجران) المحملة بالدلالة المناقضة تماما لدلالة التواصل والتزاور, وبعد ذلك إظهار الصديق المقصود بصورة من يستحسن الغدر مع أن الغدر في المنظومة الاخلاقية للمجتمع العربي المسلم يحمل دلالة سلبية يعز معها أن يكون مستحسناً, وأخيراً ورود جملة القسم مؤكدةً معنى القطيعة والجفاء من قبل الطرف الآخر, وهذه الصورة الكلية المتشكلة من هذه المفردات أعطت قيمة خلقية ومعنوية عليا لموقف الشاعر من هذا الصديق الذي ستوضحه الأبيات اللاحقة, لأنّه سيكون إيجابياً تماماً معه وسيكون مستعداً لإعادة العلاقة الى ما كانت عليه من التواصل, وسيقبل منه أي تغيير وبأيّ مستوىً لإنّه يقدر قيمة الصداقة ويعلم

[28] دراسات في الحجاج: د سامية الدريدي, اربد, عالم الكتب الحديث, ط1, 2009, ص41.
[29] الديوان: 54.

خطرها على الفرد والمجتمع. وهذا ما اكدته الدراسات الاجتماعية الحديثة من أن الاهتمام بالصداقة والحفاظ عليها قد يكون قادراً على نقل مبدأ الإصلاح من "البعد الفردي الى البعد الاجتماعي ومن فكرة التهذيب التي تتصل بالفرد الى فكرة التهذيب التي تتصل بالمجتمع"[30].

وفي سياق رصدنا لتطور نظرته للصداقة وفهمه الخاص لها نقف أمام مفهوم (المماثلة) ويبدو أن تلك النتيجة قد وصل اليها بخبرة السنين التي قضاها دارساً للناس متفكراً فيهم وفي أحوالهم حتى صار يقول إنه سيجازي الفعل بمثله[31]:

مـــن ســـلا عنّـــيَ أطلقـــ ـــتُ حبـــالي مـــن حبالِـــه
أو أجـــدَّ الوصـــلَ سارعـــ ـــتُ بجَهـــدي فـــي وِصـــالِه
غيـــرَ مســـتجدٍ إذا ازورَّ كـــأنّي مـــن عيالِـــه
إنّمـــا أحـــذو علـــى فِعـــ ـــلِ صـــديقي بمثالِـــه
كيفمـــا صـــرَّفني الدهـــ ـــرُ رانـــي مـــن رجالِـــه
ابـــنُ خمســـينٍ مـــن الدهـــ ـــرِ خبيـــرٌ باعتلالِـــه

قلنا قبل حينٍ أن ابن حازم أراد أن يسوق نفسه أنموذجا للصديق المتعالي عن أخطاء أصدقائه وعثراتهم, وفي هذا المثال يعرض علينا شخصيته من زاوية نظر أخرى قائمة على مبدأ (المماثلة) والذي أقصده هنا أوضحه في المخطوطة أدناه

فعل الصديق ـــــــــــــــــــ فعل الشاعر
السلو (النسيان) ـــــــــــــــــــ إطلاق الحبال(قطع الصلة به)
أجدَّ الوصل (تجديد التواصل) ـــــــــــــــ الإسراع في وصاله

فمن الواضح أن الشاعر قابل صديقه بمثل أفعاله لأنّه قابل النسيان والسلو بقطع حبال المودة والإخاء واذا ما جدد هذا الصديق طلب الصداقة والوصال عاد بدوره ليقبل منه صداقته ويعيد وصاله به, ويعلل ذلك بكونه وضع نفسه في ميزان

[30] المسألة الثقافية, من اجل بناء نظرية في الثقافة: زكي ميلاد, ط2, بيروت, 2010, ص234.
[31] الديوان: 137.

(ISSN : 2536 - 9555)

أصدقائه كيفما يكونون معه يكون معهم. وهذا يشير الى أن الشاعر صنيعة مجتمعه "فالمؤلف الفرد هو نتاج للمؤلف الثقافة, والثقافةُ مؤلفٌ مضمر ذو طبيعة نسقية تلقي بشباكها غير المنظورة حول الكاتب فيقع في أسر مفاهيمها الكبرى"[32].

واشد ما يثير شاعرنا من مخاوف هو الخداع وقدرة البشر على الظهور بخلاف الحقيقة فذلك أدعى لتحطيم المجتمع لأنه يفقد الثقة المتبادلة بين أفراده, وما الصداقة إلا وجه من هذه الوجوه التي يستهدفها الخداع والغش فهو يقول[33]:

وذي أوجُهٍ يرمي الصديقَ ببشرِهِ ... على أنّه مما يُحبُّ بعيدُ
تخلَّقَ أخلاقاً فلمّا امتحنتُها ... تخليتُ عنهُ والمناقبُ سودُ

لقد كان الشاعر واعياً لأهمية العامل الاقتصادي في المجتمع وظلاله التي يتركها على علاقة الفرد بأخيه وخصوصا ماله من أثر على الصداقة فقد كان (الغنى) و (الفقر) عاملين مؤثرين في تكريس المشاعر السلبية بين أبناء المجتمع لذلك نراه يدعو الى أن يكون الفرد في حال وسط من ذلك ليكون أقدر على الحفاظ على توازنه وعلاقاته مع الآخرين يقول[34]:

صديقي لا غَنيتَ غِنىً يصدُّ ... ولا أُعدمتَ إعداماً يجُدُّ
ولكن بين ذاك وبين هذا ... معاشٌ لا يفوتُكَ فيه كَدُّ
حذارِ تفرُّقٍ بعد ائتلافٍ ... فإنّ المالَ للآمالِ ضِدُّ

وفي مثالٍ آخرٍ يؤكد ما ذهبنا اليه يقول الشاعر[35]:

وكنتَ أخي أيامَ عودُكَ يابسٌ ... فلما اكتسى واخضرَّ صِرتَ مع اليسرِ
وما قلتُ حتى لم أجد متلوّماً ... عليك وحتى لم أجد موضعَ العذرِ

---

[32] النقد الثقافي من النص الادبي الى الخطاب: د. سمير الخليل, دار الجواهري, بغداد, ط1, 2013, ص32.

[33] الديوان: 47.

[34] م. ن: ص. ن.

[35] الديوان: 63.

وفي موضع اخر يعالج الموضوع من زاوية مختلفة اذ يبقى (الغنى) و(الفقر) عاملين مؤثرين لكنه يرى أن أخلاق الفرد هي التي تتحكم بمسير العلاقة وتوجهاتها يقول[36]:

إنّ اللئيمَ إذا أفادَ غنىً خانَ الصديقَ وخاسَ بالعهدِ
والحُرُّ في يسرٍ وفي عسُرٍ باقي المودةَ محكمُ العَقدِ

هنا أصبح اللؤم عاملاً ناقضاً لأصول الصداقة فما أن أصبح للئيم من أسباب الغنى شيء حتى قطع العهد وجافى صديقه, وبعكس ذلك الذي يدعوه (الحر) فهو في كل الأحوال يملك من الرصيد الخلقي ما يمنعه من الانزلاق وفعل الامور المشينة. وقد وفق الشاعر في استغلال الطاقة التعبيرية الكامنة في الجمل الفعلية والاسمية بما يتناسب وسياق الكلام, ففي البيت الأول شاعت الجمل الفعلية للدلالة على عدم ثبات اللئيم على مواقفه من الأصدقاء وتغير مشاعره تجاههم وفقاً لمنافعه الشخصية, أما البيت الثاني فشاعت فيه الجمل الاسمية متناسبة مع استقرار مواقف الانسان الحر وثبوت إيمانه بالأصدقاء بغض النظر عن أحواله الاجتماعية.

لقد كانت التغيرات الاجتماعية ذات اثر واضح في طبيعة الصداقة وكان الشاعر بصيراً بأحوال الناس وبالظروف المحيطة بهم والتي شكلت جزءاً فاعلاً في بناء شخصياتهم, ومثلما شخص أثر العامل الاقتصادي على النفس نراه هنا يشير الى عامل (السلطة) وتأثيره الواضح على الأخلاق وتحولها من المودة والوصال الى البغض والجفاء يقول[37]:

وصلُ الملوكِ الى التقالي ووفا الملوكِ من المحالِ
مالي رايتُكَ لا تدو مُ على المودّةِ للرجالِ

[36] الديوان: 51.
[37] الديوان: 88.

(ISSN : 2536 - 9555)

متبرمـــــاً أبـــــداً بمـــــن آخيـــــتَ ودُّكَ فـــــي سَـــــفالِ
خُلـــقٌ جديـــدٌ كـــلّ يـــو مٍ مثـــلُ أخـــلاقِ البغـــالِ
إن كـــــانَ ذا أدبٍ وظُـــــر فٍ قلـــتَ ذاكَ أخـــو ضـــلالِ
أو كـــان ذا نســـك وديـــ ـــنٍ قلـــتَ ذاك مـــن الثقـــالِ
أو كـــان فـــي وســـطٍ مـــن الـــ أمـــرينِ قلـــتَ يَريـــغُ مـــالي
فبمثـــلِ ذا – ثكلتـــكَ أمُـــ ـــكَ – تبتغـــي رُتـــبَ المعـــالي

يبين الشاعر في هذا النص أن الانسان لا يستطيع عزل سلوكه عن تداعياته الاجتماعية سلبا او ايجابا, فهو يحيا ويتطور عقليا وثقافيا في ظل بيئته الاجتماعية. فنلاحظ تشخيصه الواقعي لهذا الأنموذج من الأصدقاء القادر على تقديم الأعذار الجاهزة لترك التواصل مع من لا مصلحة له به وهو بذلك يفضح هذا النوع من البشر ويعريهم أمام المجتمع ويؤكد ثباتية الأخلاق كونها "مجموعة من المبادئ المعيارية اللائقة التي يتشكل سلوك البشر بمقتضاها"[38].

رغم كل ذلك هو لا ينفي وجود الصديق الذي يجد فيه ضالته والذي يتشارك معه بمشاعر صادقة قوامها المحبة والإخاء يقول[39]:

ولـي صـاحبٌ أُصـفيه ودي وأنّـه لينصـــفُني فـــي ودّهِ ويزيـــدُ
أمنتُ صروفَ الدهرِ بيني وبينه إذا دبَّ بـين الصـاحبينِ حسـودُ

ويؤكد أمله بالحصول على الصديق المناسب من خلال رفض كل النماذج السيئة والاعتماد على الصالحين في المجتمع ممن يضعهم القدر في طريقه ليكوّن معهم علاقات صداقة جديدة وكأن الله يعوضه دائما جزاءا لتمسكه بالقيم الاصيلة. يقول[40]:

---

[38] فلسفة الاخلاق في الاسلام: محمد جواد مغنية, بيروت, دار العم للملايين, ط2: ص12.
[39] الديوان 48.
[40] الديوان: 83.

وإن تغيّــرَ لــي عــن ودّهِ رجــلٌ أصـفى المـودةَ لـي مـن بعـدهِ رجـلُ
لم يقطعِ اللهُ لـي من صاحبٍ أملاً إلا تجـدّدَ لــي مــن صــاحبٍ أمــلُ

الخاتمة

1. أكدّ البحث أن الشعر العربي تناول موضوع الصداقة بجميع تفاصيله كونه موضوعاً انسانياً مهماً.
2. إن تناول الشعراء للصداقة أتى في سياق وصفه كغرض شعري تطور على أيدي الشعراء في مختلف الأزمنة.
3. انطلق الشاعر في تناوله للصداقة من خلفية إنسانية قائمة على التجربة والمعاينة مستفيداً من قدرته الفنية والإبداعية لصياغة القوالب الفنية لها.
4. تناول الشاعر من تفاصيل الصداقة صفات الصديق، وأنماط سلوكه الحسنة والسيئة، وكيفية اكتسابه، وعملية بناء الصداقة، وكيفية اصلاحها... الخ من التفصيلات.
5. إن تناوله للصداقة أتى من خلال المقطعات الشعرية فكان ذلك من أبرز خصائص شعره.
6. أكد الشاعر أهمية اختيار الصديق الصدوق ودعا الى الدقة في اختياره مازجاً نظرته بشيء من السلبية تجاه المجتمع ذلك لأن الصداقة عنده لا تعني التبادل العاطفي فقط وانما هي علاقة تقوم على البذل والمساعدة والمشاركة على أنه في بعض النصوص ينسجم مع واقعه ويتعامل مع الأنموذج الذي يقدمه المجتمع بكل سلبياته.
7. استعمل الشاعر العديد من العناصر الفنية في نصوصه الشعرية كالتصريع، والاستعارة، والتكرار، والالتفات، والتضاد وغيرها من الأساليب الفنية لتحقيق فاعلية التأثير في المتلقي ورفع مستوى الطاقة الانفعالية والتعبيرية للنص.

(ISSN : 2536 - 9555)

المصادر والمراجع

1. أثافي الطلل، دراسات في الشعر العربي القديم: د. رعد أحمد الزبيدي: دار بغداد: ط1: 2014.
2. الأغاني: ابو الفرج الأصفهاني: تح إحسان عباس: بيروت: دار صادر: ط3: 2008.
3. تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي: القاهرة: 1931.
4. تحليل الخطاب البلاغي، دراسة في تشكل المفاهيم والوظائف: د. عماد عبد اللطيف: عمان: دار كنوز المعرفة: 2014.
5. جدلية الحرية والعبودية: جلال الدين الفارسي: تعريب: د. دلال عباس: بيروت: ط1: 2009.
6. دراسات في الحجاج: د. سامية الدريدي: اربد: عالم الكتب الحديث: ط1: 2009.
7. ديوان حازم بن محمد الباهلي: صنعة شاكر العاشور: دمشق: تموز: ط2: 2011.
8. الرمز في الخطاب الأدبي: حسن كريم عاتي: بغداد: الروسم للصحافة: ط2: 2015.
9. الصداقة في العصور القديمة: ديفيد كونستان: ترجمة علي للو: مراجعة سعيد الغانمي: ابو ظبي: هيئة ابو ظبي للسياحة والثقافة: كلمة: 2011.
10. طبقات الشعراء: ابن المعتز: تح عبد الستار أحمد: مصر: دار المعارف: ط2: 1968.
11. فلسفة الأخلاق في الإسلام: محمد جواد مغنية: بيروت: دار العلم للملايين: ط2.
12. قلب الاسلام: حسين نصر: تعريب: داخل الحمداني: بيروت: ط1: 2009.
13. المسألة الثقافية, من اجل بناء نظرية في الثقافة: زكي ميلاد: بيروت: ط2: 2010.
14. معجم الشعراء: المرزباني: تح د.عباس هاني الجراخ: دار الكتب العلمية: 2009.
15. النقد الثقافي من النص الأدبي الى الخطاب: د. سمير الخليل: بغداد: دار الجواهري: ط1: 2013.
16. الورقة: ابن الجراح: تح عبد الوهاب عزّام وعبد الستار أحمد: مصر: دار المعارف: ط2.